﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ [الشعراء: 198 - 199]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من احتجاجٍ باهر، إلى احتجاجٍ قاهر

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أنّ القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين، وأنّه مذكور في كتب السّابقين، نصّت هذه الآيةُ على أنّ القرآن لو نزل على أعجميٍّ من آحاد النّاس ما آمنوا به؛ فصارت مكمِّلةً لِما سبقها في القطع بعدم إيمانهم، وأنَّ ذلك راجع لكِبْر في نفوسهم وتعنُّتٍ، وليس لعيب في كتاب الله، فهو انتقالٌ من احتجاجٍ باهر، إلى احتجاجٍ قاهر، ومن دليل ناصع، إلى برهان ساطع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾: (عجم) أصلٌ يدلُّ على سكوت وصمت؛ ومنه الرّجُل الذي لا يُفصح، هو أعجمُ، والمرأة عجماءُ بيِّنةُ العُجمَة، ويقال عَجُم الرّجل، إذا صار أعجَمَ، مثل سَمُر وأدُم، ويقال للصَّبيِّ ما دام لا يتكلَّم ولا يُفصح: صبيٌّ أعجمُ، ويقال: صلاةُ النَّهار عَجْماءُ، إنّما أراد أنّه لا يُجهر فيها بالقراءة، وقولهم: العَجَمُ الذين ليسوا من العرب، فهذا من هذا القياس، كأنَّهم لمّا لم يَفْهَموا عنهم سَمَّوهم عَجَمًا، ويقال لهم عُجْم أيضًا[1]، فالأعجم: الذي لا يفصح، وفي لسانه عُجمةٌ واستعجام، والأعجميّ مثله؛ ولمّا كان من يتكلم بلسانٍ غيرِ لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم، وأعجمي، شبّهوه بمن لا يُفصح ولا يُبين[2]؛ ومن هذا المعنى قولُ الله تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجم).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 336.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكفرُ إنِ اقترن بالعنادِ فلا رجاء فيه

تُبيِّن الآيتان حالَ المشركين وعنادَهم وإصرارهم على رفض الحقِّ، في أنَّه لو نزل القرآنُ على بعض الأعجمين، وهم الذين لا يتقنون العربيَّة، فقرأه عليهم ما آمنوا، ولأصرّوا على كفرهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل بالواو:

عطفُ الأدلّةِ النّاصعةِ على البراهين السّاطعة

جُملَةُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ مَعْطوفَةٌ على جُملَةِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؛ والوصل بينهما للتّوسُّط بين الكمالين، وقد اتّفقت الجملتان في الخبريّة لفظًا ومعنًى، والجُملُ المعطوف عليها تفيد أنّ القرآن من عند الله، وليس من تأليف النّبيّ ﷺ كما يدَّعي المشركون؛ فلَمّا فرَغَ مِنَ الاسْتِدْلالِ بِتَعْجيزِهِم فضَحَ نيّاتِهم بِأَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ بِه في كُلِّ حالٍ، كما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97][1]، فوُصِل بينهما إكمالًا للاستدلال، وإتمامًا للدّليل والبرهان.

بلاغةُ مجيءِ الشّرط بأداة (لَوْ):

الامتناعُ عن الإيمان مردُّه على التَّحقيق إلى الكبر والعناد

جاء استعمالُ أداة (لو) في قول الله تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ دون سائر أدوات الشَّرط، وهي حرف امتناعٍ لامتناع في الغالب، يدلّ على تعليق فعلٍ بفعلٍ فيما مضى؛ فيلزم من تقدير حصول شرطها: حصولُ جوابها، ويلزم كونُ شرطها محكومًا بامتناعه إذ لوقُدّر حصولُه لكان الجواب كذلك، فتصير حرفَ وجوب لوجوب؛ فهي حرف يقتضي فعلاً امتنعَ لامتناع ما كان يثبت لثبوته[2]، فإنزال القرآن على بعض الأعجمين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 193.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 45، 46.

ممتنع، وثبوتُ نفي إيمانهم واقع؛ فقد أنكروا أن يكون القرآنُ كلامَ اللّه وقد نزل على رسول عربيّ، فكيف لو نزل على أعجمي؟! فامتناعُ نزوله على أعجميٍّ ليس هو المانعَ على التَّحقيق من الإيمان، وإنَّما هو افتراضٌ لبيانِ شدَّة إصرارهم على الكفر، فإنَّ للافتراضِ شأنًا في بيان الحقائق وإقامة الحجج، وغايةُ هذا الافتراض بأداة (لو): إلزامُهم الحجَّةَ بأنَّ عدمَ إيمانِهم سببُه الكفرُ والعناد.

دلالةُ استعمالِ صيغة (فعَّل):

التَّضعيفُ في فعلِ التّنزيل من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يُشيرُ إلى نزولِ القُرآنِ الكريم مُفرَّقًا في أوقاتٍ مُتعدِّدةٍ، لتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ حيثُ لم يَنزِلْ جُملةً واحدةً.

غرضُ إسنادِ الفعل إلى نون العظمة ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾:

أُسند فعلُ (نزَّل) إلى نون العظمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ لتشريف شأنِ الإنزال، وتعظيم القرآن، وإكساب الثِّقة فيه؛ فهو نازلٌ من عند ربِّ السّماوات.

شأن الإنـزال أن يكون شريفًا

تعيينُ مرجع ضميرِ ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾:

ضميرُ المفعول في فعلِ التّنزيل من قول اللّه تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ راجعٌ للقرآن، وهو مندرج في سِلك سِمَة الإضمار في التّعريف بالقرآن في هذا السّياق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾، ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ﴾، ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾.

الإضـمـار لـلـتـعـظـيـم والتعريف

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿بَعْضِ﴾:

استعمل النّظمُ الكريم لفظَ ﴿بَعْضِ﴾ في قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ للعموم والإبهام؛ لأنَّه ليس المقصودُ بعضًا بعينه، أو فِرقةً مخصوصة، أو طائفةً معلومة؛ بل المرادُ بعضُ الأعجمين مطلقًا، إذ لا غرضَ يُستفاد منَ التّحديد والتّعيين، والمهمّ هو الخُلوصُ إلى الغرض المَسوقِ له الكلامُ.

الـدّلالـةُ على العموم المطلق

بلاغةُ استعمالِ مُفردة ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾:

لفظُ ﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ جَمعُ أَعْجَم، والأَعْجَمُ: الشَّديدُ العُجْمَةِ، أَي: لا يُحْسِنُ كَلِمَةً بِالعَرَبِيَّةِ؛ وهوَ هُنا مُرادِفُ أَعْجَميٍّ بياءِ النَّسَبِ، فيَصِحُّ في جَمعِه على أَعْجَمينَ اعْتِبارُ أَنَّهُ لا حَذْفَ فيه باعْتِبارِ جَمعِ أَعْجَم[1]، وجاء انتقاء هذه المفردة دون غيرِها لبيانِ أنَّ الله تعالى لو اختار أعجميًّا لأداء الرِّسالة، فأدّاها وهو لا يُحسن العربيَّة: لما آمنوا؛ وعليه فعدمُ إيمانِهم ليس عائدًا إلى كون الرَّسول متّهمًا، بل لشيء آخرَ وهو العنادُ الشَّديد، والاستكبارُ العتيد.

بـراءةُ الرَّسـول من تهمةِ القوم وبيانُ أنَّ سببَ عـدمِ الإيـمـان العنادُ الشَّديد

نوعُ فاءِ ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ ودلالتُها:

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾ عاطفةٌ أفادتِ التّعقيبَ؛ أي: لو بمجرّد نزولِ القرآن قام هذا المشارُ إليه بقراءة القرآن على المشركين، فإنَّهم لن يؤمنوا.

دلالةُ استعمالِ فعلِ القراءة:

المقصودُ بالقراءة في قول الله تعالى ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾: القراءة بلفظ القرآن العربيّ المبين، أي: كما أُنزل، وهذا أكملُ في الإعجاز، وأوقعُ في البيان والبرهان؛ لأنَّ الرسول المفترض أن ينزّل عليه القرآن مع كونه أعجميًّا، سيقرأه عليهم بقدرةٍ إلهيّة لا بمكنةٍ لسانيَّة؛ وهذا هو عين الخارق، ومع ذلك فلن يُؤمنوا.

القـراءةُ باللّفظ العربي المبين هي عين الخارق

فائدةُ ذكْرِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾:

آثر النَّظمُ الكريم ذكرَ قيدِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على حذفه في قوله تعالى ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾، وشِبهُ الجملة متعلِّقٌ بفعل القراءة، زيادةً في بيان مكنةِ قراءته، وما فيها منَ الاستعلاء والثّبات، وفيه إيذانٌ بكمال الاستماع والإنصات، بحيث يصل مسامعَهم وعقولَهم وقلوبَهم،

المبالغةُ في إقامة الـحـجّـة مع شـدّة التّكذيبِ لا تـسـتـوجـب الإيمانَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 193.

وتنتفي الشّبهةُ في أنّهم لم يسمعوه، أو سمعوه مشوَّشًا غيرَ واضحِ المعاني والألفاظ؛ ومع ذلك فإنَّهم لن يؤمنوا.

دلالةُ نفيِ فعلِ الكَون الماضي ﴿مَّا كَانُواْ﴾:

إذا تمكّن الكفرُ في القلبِ انسلَّ الإيمان منه

جاء النّفيُ بأداة ﴿مَّا﴾ داخلًا على كان النّاقصةِ في قول الله تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ لإفادة القطع بنفي الإيمان حالًا ومستقبلًا، فقضيَّتُهم ليست فيمن جاء بالقرآن، وإنّما في القرآن ذاته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33].

فائدةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

قصرُ نفيِ الإيمان على القرآن مبالغةٌ في الكراهية

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على خبر كان ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ في قول الله تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يقل: (ما كانوا مؤمنين به): لإفادةِ القصر، حيث قُصر نفيُ الإيمان على القرآن، فالقرآن هو شغلُهم الشّاغلُ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ مجازيّ، مبالغةً في بغضهم وما انطوت عليه نفوسُهم من كراهيةٍ وحِقد لمضامين القرآن، وأوامرِه ونواهيه؛ فهم يؤمنون بكلِّ شيءٍ إلّا بهذا القرآن.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

أفاد التّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾، المشتقِّ من فعل الإيمان، والواقعِ في سياق النّفي من قول الله تعالى ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾: تجدُّدَ نفيِ الإيمان عنهم بتجدُّدِ القراءة، فالقراءة تُثير أضغانَهم، وتستنفر مشاعرَ الكراهية لديهم؛ مع ما في اسميّة ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ من معنى الثّبوت على الكفر، والرّسوخِ في العناد.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»